قصة ما قبل وما بعد

تجارب تطبيقية حول ممارسات التعليم ومعارفه

مالك الريماوي

في رؤيا المؤتمر

انطلقنا نخطط للمؤتمر ونبني مفردات عمله ونحن نمنح الموقع للمعلم/ة ليمنحنا مادة المؤتمر وروحه، وكنا نضيء المسار بتوجه تكاثف وتكثف على شكل شعار للمؤتمر: **نجرب، نختبر، نصنع فرقاً دالاً، نتأمل في تجربتنا وننتج معنى، نطور ذاتنا ومهنتنا، نمتلك قصتنا ونحكيها بصوتنا.**

والشعار ليس ملخص عمل فحسب، بل هو خلاصة رؤيا أيضاً، فهو بناء لمنهج العمل، وعمل في بناء المنهجية، ففيه فجائية الرؤيا، وخطاطة الفعل، وقانون الجدل، جدل التجربة والخبرة، وجدل الفعل والتأمل، وجدل الصوت والقصة:

- فالتجربة والخبرة تتفاعلان في صيغة تتداخل عبر العمل لبناء الفرق فيه وصناعة دلالته.

- الفعل والتأمل ينبنيان في متن التجربة، وينتجان فيها بإنتاجهما للمعنى لها.
- الذات والمهنة هما خطا الفعل ومحل فاعليته ومفعوله، فهما فاعل النص ومحل نصيّته معاً.
- الصوت والقصة هما حبكة الفعل وقوة الفعل فيه، فهما قصة التغيير ومنبره.

ما قبل القصة

اجتمعنا في «القطان» وبنينا الشعار السابق، واتفقنا أن خارج هذا الشعار الذي أضمر العملية ورؤيتها، لن يتغير التعليم لا كممارسات ولا كسياسات، لأننا سنبقى أسرى لعطالة مزدوجة: من يتحدث عن (مواصفات التعليم الجيد) لا ينخرط في فعله، ومن ينخرط في التعليم مطوراً ومغيراً لا يملك موقعاً يحكي منه.

ولذلك، نريد لهذا المؤتمر أن يأتي تتويجاً لمسار طويل من العمل المستند إلى فعل المعلمين وممارساتهم في المجال الصفّي، فعل يقوم على قراءة الممارسات والعمل على تطويرها عبر وضعها في سياقات، فعل يحدث في سياق، يتيح للمعلمين والطلاب مساحات أكبر من التجريب، والتطوير، والتعبير، والمراجعة، وإعادة النظر هذا من جهة أولى، وهو من جهة ثانية فعل يحدث في سياق، ويتحول عبر المؤتمر إلى سياق آخر ينتج الفعل، بوصفه قوة سياسية، وموقعاً منبرياً عبره يصنع المعلم للتعليم صوتاً.

فكتبنا ورقة مفاهيميّة تضمنت مقولات المؤتمر وقواعد إنتاجه، ومنها: أن المحك الأول في تغيير التعليم ليس «التنظير له والحديث عنه فحسب»، بل المطلوب ممارسته؛ أي ممارسة تعليم جيد «يشكل مداخلة تدخليّة» في شكل التعليم ومضامينه ومقولاته الرئيسية، للإسهام في إنتاج تعليم يمس أسئلة الحياة وتعبيراتها، وينحاز لمتخيلات سياسية ومجتمعية جديدة تنتصر لقيم وبناءات اجتماعية أكثر حرية وعدالة وإيماناً بالإنسان.

وبما أن التعليم، فعل اجتماعي، فلن يكتب له التحقق في سياق نوعي، إلا بمقدار قدرته على أن يغير شكله، ويساهم في تغيير فاعليه، وما بينهم من علاقات، وبالتالي فالتعليم الجيد هو فعل نوعي في المعرفة والمجتمع، وهو مسار تكويني (بنائي) للمعلمين الفاعلين له، لأنه يقوم على تغيير أجندة المعلم ومفاهيمه وممارساته، **فالمعلم قبل كل شيء هو صانع لنفسه قبل أن يكون منتج أشياء.**

وأكدنا أن ممارسات المعلمين لا تنفصل عن معارفهم، فالمعرفة هي نوع من الفضيلة، لأنها تساعدنا على أن نقرر كيف نفعل ما نريد فعله، وتمكننا من تجاوز حالة العمى المفاهيمي، وتساعدنا على قراءة أفعالنا ومدى ملاءمتها للسياق الذي نحن فيه. إلا أن المعرفة وحدها لا يمكنها أن تحيط بكلية الصف، ولا يمكنها خلق ديناميكيّة الجماعة الصفية، فالمعرفة تتيح لنا أن نفكر فيما يحدث، وفي ما يمكن أن نفعل، ويمكن للمعرفة أيضاً أن تساعدنا على تغيير معتقداتنا اتجاه الصف، ومراجعة طرائقنا في النظر والعمل.

إن المعرفة تكتمل عبر الفن، الفن الذي نحتاجه في الممارسة ونبنيه فيها، فالممارسة هي قلب الحياة الاجتماعية، فهي اختبار المعرفة، وهي تعمل ضمن العلاقات الاجتماعية، وفي مجال الصراع والتسوية مع مراكز القوة المنتشرة في المجال الاجتماعي والمتحكمة فيه، وهي حقل الفن وموضع إنتاجه على شكل إشارات دالة ودلالات مؤشرة، ولذلك، فإن الممارسة تمثل نقطة التقاء الثقافة والبناء الاجتماعي والإرادة والمعرفة الفردية معاً، ما يجعلها -أي الممارسة- حقلاً للصراع والتفاوض من جهة، ومجالاً لاختبار المعرفة، وشكلاً من أشكال مساءلة الثقافة وطاقة جمالية لتعديل خطوط البناء الاجتماعي.

فالممارسة التعليمية هي شكل من أشكال إنتاج المعلمين لواقعهم ولذواتهم ولشروط عملهم، وهي كفعل أيضاً، لا تعيد اختبار معارفنا فحسب، بل هي مساءلة لما نعرف ولما نعتقد، وهي ما يساعدنا على أن نعي وأن نقرر ماذا نبقي منا ومن مجتمعنا؟ وماذا نغير؟ فالممارسة في طبيعتها ومحتواها تقول من نحن، وفي شكلها وكيفية إجرائها تقول ما ثقافتنا، وبأي مجتمع نؤمن، فما نفعله هو تعبير عن هويتنا الشخصية، وكيفيات فعله هي تعبير عن هويتنا الثقافية، أما لماذا نفعل ذلك؟ فهو سؤال عن تصوراتنا حول الكينونة، والجواب لأننا نريد التغيير وننحاز له.

كتابة نص القصة وإنتاج نصيتها

بدأنا العمل بوحي المقدمة السابقة وفي ضوء توجهاتها، المؤتمر سيكون فرصة لعرض تجارب تطبيقية، وتقديم قراءات وشهادات حولها من قبل المعلمين أنفسهم، حيث يمكنهم الكلام عن تجاربهم في حقل التعليم، وتقديمها كتجارب تنطلق من تخيلات مجتمعية وإنسانية جديدة، وتمكن الطلاب من البحث والتساؤل والانخراط، ما يمكنهم من تطوير خبرات وبناء معانٍ ومساءلة قيم. تجارب يتم بناؤها وتنفيذها وقراءتها بشكل يكون المعلم فيها:

- قارئاً؛ يقرأ السياق الذي يعمل فيه، ويلتقط الإشارات، ويلائم ممارساته، ويبني رسائله لتكون فاعلة في إعادة إنتاج المحيط والعلاقات القائمة فيه.
- ناشطاً؛ يقدم تصورات جديدة عن المهنة والدور والقيم.
- منتجاً للمعنى؛ يمتلك موقفاً نقدياً من المعرفة، مستنداً إلى التجربة، ناظراً من زوايا متعددة.
- فاعلاً عبر المشروع؛ يمارس التعليم كمشروع في المعرفة والحياة، مطوراً لخبرات، قادراً على الإتيان بحلول مبتكرة.
- باحثاً في ممارساته؛ يقرأ تجربته، ويتأمل في فعله، ويستنبط فيه المعاني، ويعبر عنها بالتعبيرات والمفاهيم المناسبة.

كتبنا نص الرؤيا وبلغناها على شكل إعلان للمعلمين والمعلمات، وهالنا عدد المعلمين المتقدمين للمشاركة، وكنا نتوقع ذلك، ولكن ما حدث فاق كل التوقعات، ما يملكه المعلمون ليس رغبة في المشاركة فحسب، بل هي رغبة وإصرار وقدرة هائلة على ترجمتها إلى التزام وجهد وعمل دؤوب. إن ما يجري هو بوتقة عمل وهو عمل لقانون

الحث المتبادل، نشحن المعلمين ويشحنوننا، وهذا ما تشهد به المعلمة «**بينما كنت أحضر لتجربتي، شدني كثيراً حماس القائمين على هذا المؤتمر، من خلال استعدادهم لتقديم شتى أشكال الدعم وعدم التذمر أو التهرب، حيث كان بعضهم يصل ليله بنهاره ليستطيع أن يقوم بما هو مطلوب منه وأكثر من ذلك، ما جعلني ازداد حماساً للمشاركة والعمل على تقديم أفضل ما يمكنني تقديمه**».[1]

فقد تقدم للمشاركة معلمون ومعلمات كانوا من مدة يعملون على تجارب ومشاريع وهي متدرجة في الاكتمال، فبعضها في نهايته، والبعض الآخر في منتصفه، وجلها في بدايته، وكنا نعتقد أن اكتمالها في غضون شهر هو من باب المستحيل، لكن ما أدهشنا أن البعض ممن شارك حضر للمركز وأعلن إصراره على الاشتراك وبين يديه إصراره فقط، فهو حتى اللحظة لم يجرب وليس واضحاً له ماذا سيعمل، لكنه مؤمن بأنه يملك إمكانية وتحدياً ورغبة، ويريد فرصة لترجمتها لفاعلية منتجة، وفّرنا لهم الفرصة «**أن مؤسسة القطان احتضنتني وشجعتني (. . .)، وفروا لي الوقت والدعم المعنوي حتى أنجح في تجربتي، الخوف من المشاركة كان يراودني لكنهم قالوا لي: إنني أستطيع**».[2]

ولإيماننا بالإنسان أولاً، وبالمعلم ثانياً، الذي نعتقد أننا إذا لم نخيب أمله، لن نخسر سوى أن نسقط بديهية كاذبة أخرى، ولذلك قررنا أن نغامر، وقلنا لهم هيا نعمل معاً، وفعلاً في خلال شهر واحد أنجزت بعض المشروعات، قام المعلمون بالتخطيط لها وتحضير اللوازم وبناء الفرص واشتقاق الأمكنة والأزمنة، وقاموا بالتنفيذ والتصوير، ثم أنجزوا تحويل المادة المصورة إلى فيلم، وتحويل الفعل وكل منتجاته وعملياته إلى نص مكتوب، وبالإضافة إلى ذلك أنجزوا المساحة لتحقيق ذلك، وبنوا ثقتهم على أنهم يملكون القدرة والجرأة اللازمة لتقديم عملهم للآخرين، وهذا يمكن تلمسه في أقوال المعلمين والمعلمات: «**اتصال من مركز القطان كان بمثابة انقلاب في حياتي، كانت سماعة الهاتف وكأنها تقول لي: أيّها المعلم من هذه اللحظة بدأ التغير**».[3] وملاحظة أخرى: «**إن المؤتمر دعوة لإحياء التعليم الذي أصبح شبه ميت**».[4] «**المعلم اليوم يرسم خريطة العالم بآمال يحققها**».[5]

المعلمات والمعلمون يبدعون التجارب ويبدعون ما هو فوق النجاح، إنهم ينتجون الصدى «**من الرسم كانت انطلاقتي التي بدأت بالألوان والورق حتى أصبحت تجربة واقعية لها صدى**»،[6] بعد المؤتمر بأيام يقول لي أحد المعلمين: «**في أثناء عملي علي مشروعي سألتك وأنت تنظر لبعض منتوجات الطلاب وكتاباتهم: هل سينجح المشروع؟ رفعت رأسك نظرت لي وسرحت وكأنك ذهبت بعيداً، وقلت لي من المكان الذي كنت فيه: من قال أننا نريد للمشروع أن ينجح، إننا نريده أن يبدع، أن يصنع فرادته وتميزه، أن يتخطى حدود النجاح، أن يغير.**

إذا أردت النجاح فقط، فيكفيك ما فعلت، فمشروعك حقق ذلك منذ مدة طويلة». ويضيف المعلم: «**إن قولك تجاوز غايته فلم يعد النجاح غايتي، بل ما أريد هو ما بعد النجاح والتفوق، وهذا تجاوز المشروع نفسه ليصبح مبدأ عمل وتوجه حياة**».[7]

وكيل وزارة التربية يقول: إن أي مشروع تغيير يجب أن ينطلق من مبدأ: «**لنبدأ من الأساسيات، ولنراجع البديهيات**». والمعلمون اليوم لا يسائلون الأساسيات فحسب، بل هم يقوضونها ويعيدون إنتاج بدائلها، فالمعلم اليوم هو مركز التعليم وصانع فلسفته، فهو يرى ما يجب ويصنع مرئيته»، فـ«**غيرك ينظر ويفكر فيما تقول، وهذا أعظم إنجاز**».[8] المعلم اليوم قوي ويمثل قوة طلابه، لأنه أمين على صوتهم، لأن صوتهم ند لصوته ومكبر له «**ما زاد ثقتي هو رنين صوت الطلاب وتأملاتهم التي كانت تناديني وأنا في المؤتمر، بل تخيلت وجوههم وسمعت أصواتهم تقول شارك وأثبت نجاحنا، وحدثهم أننا لسنا طلاباً فحسب، بل أصبحنا شركاء نملك الجرأة والاستعداد، والقدرة**». المعلم اليوم لا يملك صوتاً وحلفاء أنداد فحسب، بل هو ناشط اجتماعي ثقافي. فـ«**التجربة تخلق الثقافة، وتجسد روح الفن الجمالي وفضائه**».[9]

ما بعد القصة وفي بناء تناصها السياسي

في أثناء تقديمنا للمشروعات والحديث عن كيف عانى الطلاب في جمع مواد الذاكرة والتاريخ، وكيف حولوا المشروع من سياق تعلم ومنهجية بحث إلى فعل في المجتمع المحلي وفي تخيلاته، سئلنا من الجمهور سؤالين حساسين، السؤال الأول: هل تمحورت المشروعات على شكل دراسة حالة؟ وكان جوابنا السريع والمباشر أن جوهر المشروع ليس دراسة حالة، بل هو حالة انخراط في الواقع لقراءته وإعادة كتابته في ضوء الهم والرؤيا اللذين قادا المشروع وتبلورا عبر مساره. والسؤال الثاني: لماذا تركتم الطلاب يعانون مقارعة الأهالي ورفضهم التجاوب معهم في البداية، ليتحولوا إلى داعمين للطلاب بعد أن رأوا مفاعيل المشروع وأهميته؟ لماذا لم توزعون ورقة للأهالي تشرح المشروع وتحكي أهميته؟ وكان جوابنا أيضاً: لم نفكر في مشروع ننشر ثقافته ونحكي أهميته، بل أردنا مشروعاً ينتج ثقافته وينشرها ويحقق أهميته عبر مساره وعبر فعل الطلاب له.

هذان مبدآن أساسيان في فعل تجارب المؤتمر، مشروعات لا تقف عند حدود مفاهيم البحث المحايد أو التعليم البارد، ومشروعات لا تحكي فعلها بل تنتج مفاعيلها، وتتحول إلى قصص تقلب مفاهيم فاعليها «**لم يتعلم المشارك الكتابة وكيفية العرض فحسب، بل يتعلم كيف يحاور بذكاء، متحملاً تباين الآراء، وانفعالات الحضور**».[10] «**إن الانتقادات والاقتراحات التي تلقيتها دفعتني للتحدي والتفكير في خوض غمار تجربة جديدة**».[11] ليس ذلك فحسب، بل إن هذه القصص تحاور مفاهيم المشاهدين وتدفعهم لإعادة إنتاج مفاهيم الأكاديميا في ضوء أنين الناس والحاجة للعمل معهم.

المؤتمر ينتهي وهو يكسر الحدود ويعيد إنتاجها، معلمون ومعلمات من مدارس حكومية ومدارس وكالة الغوث، ومدارس خاصة إسلامية ومسيحية، معلمات من محافظات الضفة، وأخريات وآخرون من الجزء المغتصب من فلسطين يحضرون بأجساد تحمل إصرار البقاء، بقاء موشوم بالكفاح كشرط للبقاء، لكنهم يشاركون بفاعلية في رسم خريطة التعليم، رسم يعيد إنتاج الخريطة، خريطة وطن لا نراه إلا وطناً يتكامل في الجغرافيا وفي التاريخ، «**ومما زاد من قناعتي في المشاركة في هذا المؤتمر هو كوني فلسطينية من الداخل، أشعر دائماً بأهمية أن أكون جزءاً فعالاً في التواصل مع المعلمين الفلسطينيين، نتبادل الخبرة معهم. فنحن كمعلمين فلسطينيين، بغض النظر عن مكان تواجدنا الجغرافي، علينا ألا نجعل الحدود والمسافات عائقاً يحول دون التزامنا بمبدأ التغيير المجتمعي والتعليمي**».[12]

إذن، هو فعل في إعادة إنتاج الجغرافيا، وفي إنتاج خريطتها المتخيلة، وهو فعل في التعليم وفي خريطته، تعليم يعيد إنتاج مقولاته، فعبر التجارب يتجاور المدرسي والحياتي، المنهاجي واللامنهاجي، تعليم الطفولة والطفولة المبكرة والأساسي والثانوي، تعليم المواد المختلفة بأفق تكاملي، خلق المفاعلة بين المعرفة الشعبية والمعرفة المنهاجيّة وإعادة إنتاج كل منهما في ضوء الأخرى. كل ذلك يعيد تشكيل مقولات التعليم، ويعيد تشكيل أقواله في الواقع والمجتمع.

وأخيراً يبقى الشكل فاعلاً، ويقدم مثالاً يزيح المعيار ويقلب القاعدة، محاضرة أكاديمية تقول: «**كان مؤتمركم ملهماً، أن ننتج التعليم من وجهة نظر المعلمين، أن نقلب القاعدة، المعلم يقدم القصة ويحكي مفاهيمها، ويقدم فرصة للمسؤولين والمحاضرين الجامعيين للتأمل في مقولاتهم وفي أفعالهم**».[13] بعد أيام ترسل لنا تخبرنا أنها تخطط لمؤتمر يحكي فيه الطلاب الجامعيين عن رؤيتهم للتعليم الجامعي، ويسمعهم أساتذة الجامعات وعمداؤها، الشكل يسرح ويفعل، والمعادلة تعيد قراءة الواقع، والواقع يخترق بمعادلة جديدة: **المعلمون والمعلمات يفعلون التعليم ويمكنهم المساهمة في مقولته**.

مالك الريماوي – مركز القطان

الهوامش

1 فيفيان طنوس في: «انطباعات المشاركين»، ص: 157–158.
2 ربى الكيلاني، ص: 96–102.
3 وائل فقيات، ص: 59–62.
4 ريما طه، ص: 32–39.
5 نسيم كبها، ص: 135–136.
6 ربى كيلاني، ص: 96–102.
7 يوسف الخواجا، ص: 29–31.
8 وائل فقيات، ص: 59–62.
9 المصدر السابق.
10 باسمة صواف، ص: 85–87.
11 كنانة الدجاني، ص: 40–45.
12 رائدة حسن، ص: 116–119.
13 د. سائدة عفونة، ص: 161–162.